المشرق

الخفلات اليوبيليّة

بتثبيت القديسين لويس غونزاغا

واستانسلاوس كوستكا

من الرهبانيّة اليسوعيّة

الاب لويس شيخو اليسوعي

مقدمة

زهرتان نبتتا في حديقة الكنيسة الكاثوليكيّة في القسم الثاني من القرن الثامن عشر فعطّرتا أوّلاً تربتهما ايطالية وبولونيا ثمّ انتشر عرفهما بعد ان قطفهما الله وضمّهما من رومية الى جنانه حتى تنعّم عبيرهما كافّة العالم المسيحي لاسيما اذ اقامهما على مذبح الكنيسة البابا بندكتوس الثالث عشر في ٢٦ كانون الاول سنة ١٧٢٦ واعلن بقداستهما السامية فاتخذهما الشبان قدوةً فكانت سيرتهما دافعاً عظيماً جدا يأوف منهم الى ان ينهجوا نهجهما ويضحّوا النفس والنفيس في سبيل البرّ والعيشة الصالحة والكمال المسيحيّ على مثالهما

ولا عجب ان كرّر الاحبار الرومانيّون الثناء العاطر على هذين القديسين وجعلوهما

لاسيما القديس لويس غونزاغا من شفعاء الناشئة الدارسين ليتعبّروا آثارهما ويصونوا انفسهم من وباء هذا العالم الغرور

وقد احبّ قداسة امام الاحبار المالك سعيدًا البابا بيوس الحادي عشر ان ينتهز فرصة المئة الثانية لتثبيت قداستهما كي يوجه الى العالم الكاثوليكي براءة اطرأ فيها فضائلهما ثمّ تقدّم بان تقام مواسم بهجة لاكرامهما واوصى كافة الشبان الكاثوليك بان يقتفوا آثارهما ويحيوا في نفوسهم فضائلهما لينجوا من عثرات هذا الجيل الفاسد ويصونوا كنز البراءة التي اتّسموا بسماتها في معموديتهم

وها نحن اجابةً لرغبة ابينا الاقدس نعرض على شبيبة هذه البلاد خلاصة اعمال ذينك القدّيسين ليستضيئوا بنور رشادهما مباشرةً بشفيع طلبة المدارس الخاصّ القديس لويس غونزاغا

خلاصة

سيرة القديس لويس غونزاغا

[illegible] من يُلقّب [illegible] بالقديس لويس دي غونزاغا يجدها مزدانةً بثلاثة رموز يُلتمع بها [illegible] ما امتازت به حياة ذلك الشاب السماوي. فتراهُ يمسك باحدى يديه زنبقة بيضاء وعند قدميه تاج الامارة والشرف وعيناهُ شاخصتان الى صليب الربّ الذي بيمناهُ: تلك رموز طهارة لويس واحتقاره لشرف العالم واباطيله ثمّ محبّته لربّه ولصليب آلامه

١ً الزنبقة رمز طهارة لويس

قال الربّ في سفر الحكمة: ما ابهى الجيل الطاهر فان ذكره يبقى مخلّدًا عند الله والناس. على انّ الطهارة وان تكن جميلةً في كل حين فانها ابهى واجمل في سنّ الشباب حين تقوى على الانسان اهواء العالم وشهوات النفس ويسعى عدوّ جنسه بان يسلبهُ ذلك الكنز الملائكي. ولقد اقرّ احد زعماء الفتن والشرور جان جاك روسو بانهُ لا يعلم بوجود شيء اعظم جمالًا وابهى منظرًا من شاب بارّ طاهر الذيل نقيّ القلب

وقد اتّفق كتبة سيرة القديس لويس غونزاغا انهُ بلغ بطهارته مبلغًا قلّ من بلغهُ مثلهُ في درجته

﴿مولد لويس﴾ ولد لويس في ٩ آذار سنة ١٥٦٨ . وبعنايته تعالى تقدَّم ميلادُه الروحيُّ بالعماد في احشاء والدته على ميلاده الطبيعي فعُدَّ ذلك كفاتحة لحياته الطاهرة المقدَّسة . كان مولدهُ في قصر كاستيليونة التي كان والدهُ فرديناندو سركيزًا عليها وهو يُنتمي بالقرابة الى معظم اشراف ايطالية واسبانية وفرنسة لانتشار اسرة غونزاغا في انحاء اوربة

ولم تكن امُّهُ مرتا دون زوجها شرفًا إلَّا ان تقاها كان يفوق على شرفها . فما كاد يولد بكرها لويس حتى رسمت عليه اشارة الصليب وباركتهُ وقدَّمتهُ لله ولوالدته الطاهرة وقد عمَّ الفرح سائر اهل المدينة فقُرعت الاجراس وأُطلقت المدافع وتزاحم الشعب في الكنائس ليشكروهُ تعالى على ولادة وريث لاميرهم كما تتقاطر الاعيان الى قصر والده ليهنئوهُ بنجله

على انَّ حياة المولود كانت في اوَّل بروزه للوجود معرَّضة لخطر الموت . وانَّما هذا الخوف زال تمامًا مذ نذرت امُّهُ ان تحجَّ الى زيارة بيت العذراء وكنيستها الشهيرة في مدينة لوريت

﴿صبا لويس﴾ قضى لويس صباهُ في حجر والدته القديسة اذ كان والدهُ منهمكًا باشغال الامارة ثمَّ بخدمة الملك فيلبُّس الثاني ملك اسبانية الذي ارسلهُ مع جيشه لمحاربة الاتراك في تونس

فنشأ لويس مشمولًا بنظر والدته الصالحة التي اسرعت فطبعت في قلب بكرها حبَّ الله ووالدته البتول ولقَّنتهُ مذ تحرَّك لسانهُ اللهجة باسمَي يسوع ومريم والاتسام باشارة الصليب . وكأنَّ الطفل مذ ذاك الحين ادرك شيئًا من امور السماء فكان يُقبل على ارشادات امِّه بكل رضًى فتُعلن المركبة انَّها ترى في ولدها صورة ملاكٍ لا بشر

ما كاد يبلغ لويس الخامسة من عمره حتى كان يعتزل عن اهل البيت وينفرد في زاوية امام صورة العذراء فيجثو على ركبتيه ويضمُّ يديه الصغيرتين فيصلي دون حراك كانهُ من عالم الارواح

﴿الجندي الصغير﴾ على انَّ والدهُ عاد في تلك الاثناء . ولم يستصوب ما آنسهُ من تُقى لويس وهو يريد أن يخلفهُ يومًا في مناصب الجنديَّة . ومن ثمَّ ابعدهُ من القصر والبسهُ بزَّةً عسكريَّة فاخرة وجعلهُ في حراسة احد ضباطه بين جنوده في بلدة كازال

من اعمال ميلانو فكان الولد يمشي مع الجند ويتقلد حركاتهم ويسير في مقدمتهم كالقائد امام فرقته. فسُرُّوا به اي سرور ثم خالطوه واختلط بهم وسمع منهم ألفاظاً بذيئة لم يدرك معناها فردّدها بسذاجة الاطفال. ولما لامهُ الضابط وكيلهُ على التلفُّظ بها امتعض لذلك وبكى على فعلهِ بقيَّة عمرهِ كأنهُ أتى اثماً كبيراً

ثمَّ رأى الجند يطلقون البنادق فاراد ان يحذو حذوهم فاخذ بالسرّ قليلاً من البارود من جبخانة احد الجند وحشا بهِ بندقيَّةً فانفجرت بين يديهِ وكادت تذهب بحياتهِ لولا نعمةٌ من الله. فكان ذلك الاثمَ الثاني الكبير الذي اقترفهُ في حياتهِ وندم عليهِ ندامة كبار المذنبين على خطاياهم

﴿ربيب البتول﴾ عاد لويس الى قصر والدهِ فانتعشت نفسهُ بقرب والدتهِ وحوَّل قلبهُ ثانيةً الى امور الروح بينما كان اخوهُ رودلفوس يتلهَّى بملاهي الصبا. واذ سمع والدتهُ تقول يوماً: «مَن لي ان ارى احد اولادي مكرَّساً لخدمة الله» التفت اليها لويس وهو في السابعة من عمرهِ وقال: «ثقي يا أمَّاه فاني انا المختار لهذا الشرف»

أُرسل لويس الى مدرسة مع اخيهِ ليتخرَّج هناك مع اشراف طبقتهِ بالآداب المدرسية. وكان في بيت الدوق فرنسوا دي مدانشس من الكتب غير المدرس بكل رغبة وما لبث ان احرز بذكائهِ كل زملائهِ اساتذتهِ. فكان يأخذهم العجب من توقُّد ذهنهِ ونشاطهِ. ولا غرو فانَّ لويس صرف كل فكرهِ بمدرسهِ وحاد عن ملاهي البلاط والالعاب الخارجة فيهِ

ومع حرصهِ على الدرس كان يزداد تُقىً وعبادةً وقد وجد في مدينة فلورنسة ما يجدونهُ في كل بلد من آثار دينية جليلة وكنائس فخمة البناء واديرة فاخرة وفنون جميلة لكبار المصوِّرين وقد احبَّ لويس التردُّد على كنيسة شهيرة هناك قديمة العهد على اسم العذراء تُكرم فيها صورة عجائبية شُغف لويس بنظرها وشعر في باطنهِ في احد الايام ما يدفعهُ الى ان يتقدَّم لها اعزَّ تقدمة لديها فنذر امامها البتولية الدائمة. فرضيت العذراء بتلك الهديَّة الثمينة وأثابتهُ عليها بان حنَّت اليهِ الطهارة وصانت قلبهُ من كلّ الشهوات البدنيَّة حتى اخفَّها فقضى حياتهُ كملاك متقمِّص بجسم بشري

﴿سياج الزنبقة﴾ انَّ هذه النعمة الفريدة التي نالها لويس ولم يحظ بها الَّا قليل من اولياء الله اراد ان يصونها صيانتهُ لأعظم كنوز العالم فاحاط تلك الزنبقة البيضاء

بسياج من اشواك الاماتة والتقشفات ردّ بها كلّ هجمات العدوّ الباطن والخارج. وكان اوّل ما توسّل اليه لحفظ طهارته إماتة حواسه فكان حيثما سار يُري محتشماً غاضّاً بصرهُ عن كل منظر مُريب. وبالغ في ذلك مبلغاً عجيباً حتى انهُ كان لم يشأ ان يُحدق بعينهِ الى وجه امرأة البتّة. ولمّا صار فيما بعد في خدمة ملكة اسبانية في مدريد بقي سنتين دون ان يعرف صورتها. بل كان يحوّل نظرهُ عن المركبة امهِ نفسها تصوُّناً وتعفُّفاً. كما انهُ كان لا يدع الخدم يدخلون اليهِ عند نهوضهِ من الفراش ولبسهِ ثيابهُ

وممّا ألفهُ لويس لحفظ طهارتهِ ضروب التقشفات فكان يحيد عن كلّ ما ينتعم الجسد من أكل وشرب ولبس وراحة. فكان وهو في ربيع الحياة لا يكاد يغذي جسدهُ بغير القوت الطفيف حتى عُدَّت حياتهُ صوماً متواصلاً وربّما اكتفى طول يومهِ بالخبز والماء. وكان لا يرقد على فراش ناعم بل يدسّ في فراشهِ حصًى وقطع من الاخشاب ليقهر جسمهُ في نومهِ وكثيراً ما نام على وجه الحضيض

وكان في لبسهِ يتأنّف من كل بهرجة وجاه باطل ويفضّل أبسط الملابس وأذلّها. وكان يتمنطق بزنّار حديدي ذي مهامزَ مشوكة ويلبس المسح ويجلد جسدهُ بقساوة شديدة حتى يسيل دمهُ على الارض

فذاك كان السياج الذي اتخذهُ ابن امراء غونزاغا فصان بهِ طهارتهُ العجيبة بين مفاسد العالم الشرّير حتى يجوز القول انهُ لم ينلهُ من وبائهِ نسمةٌ واحدة

ولمّا اراد في السنة التاسعة من عمره ان يعترف اعترافاً عامّاً عن حياتهِ الى احد الآباء اليسوعيين كان لم يجد بعد الفحص الطويل إلّا بعض صغائر الأثم التي لا يكاد غيرهُ يعبأ بها فاعترف بها مذرفاً الدموع السخينة كأنهُ اكبر الخطأة

﴿نضارة الزنبقة وبهاؤها﴾ لم يكتفِ لويس غونزاغا بان يقتل في قلبهِ روح العالم ويطفي عن نفسهِ كلّ شعاعهِ بل عرف من اين يستمدّ لهُ القوّة ليزيد طهراً وبراءة. وما ذلك إلّا بمثابرتهِ على الصلاة. فكان لا يقضي يوماً الّا ويتحرّ بمناجاة ربّهِ إمّا منفرداً وامّا قانتاً في بعض الكنائس. وكثيراً ما كان ينهض ليلاً يأخذ الملابس ويحيي الليل بالصلاة مع ما يشعر بهِ من برد الشتاء القارس

ولما قُضي عليهِ ان يتنقّل الى حواضر مدن ايطالية واسبانية فيختلط هناك بشبيبة الاشراف الذين كانوا يتهافتون الى النوادي الحافلة والمشاهد الفتّانة المطربة والمآدب

الفاخرة والمناورات العجيبة كان لويس يتوارى خفيةً ويتزوى في حجرته فيقضي الساعات الطويلة في مناجاة الله. وكان اذا شرد فكرهُ في صلاته أطالها الى أن تمرَّ عليه ساعةٌ تامَّة دون شتات. فكان يخرج من صلاته برغبةٍ اعظم في العيشة الفضلى

أفمن العجب بعد ذلك ان نصعت تلك الزنبقة البهيَّة فاشيه لويس بطهارته ملائكة الله

وقد زاد حبُّهُ لتلك الفضيلة السماويَّة لما دُعي الى التقرُّب من خبز الملائكة لاوَّل مرَّة وذلك في الثالثة عشرة من عمره اذ لم تسنح لهُ الفرصة للحظوة بهذه النعمة قبل ذلك. وقد تمَّ الامر في بلاط والده اذ مرَّ هناك القديس الكبير الكردينال كرلس بروماوس رئيس اساقفة ميلانو ومتَّعهُ بقبلة الهه في سرّه العظيم. فحدِّث ولا حرج عما نالهُ من التعزية والسلوان فتحقَّق فيه قول الربّ: طوبى لطاهري القلوب فانهم يعاينون الله. فلم يبرح ذكر هذه النعمة من باله وكان كلَّما يتقرَّب من المنّ السماوي يذوب قلبهُ حبًّا وتسمو طهارتهُ سطوعاً

ومن مفاعيل تلك الزيارة انها قشعت عن ذهنه ظلام الجهل فكان بصفاء عقله ... لمسائل العويصة من البلغة والرياضيَّات التي كان يتلقَّنها من اساتذته بكل سرعة حتى نال فيها في مدينة مدريد قصبة السباق على اقرانه

ولا يظنَّنَّ احد انَّ عيشة لويس الفشفة وحياتهُ الشظفة كانت توتِّر في معاملاته وتصرُّفه مع القريب فينسبونهُ الى شراسة الاخلاق والخشونة والجفاء بل كان على خلاف ذلك انيساً لطيف المعاشرة دمث الاخلاق يحبُّ الجميعُ التقرُّب اليه لحسن طباعه وسموّ حكمته. وكان الشبان اترابهُ خصوصاً اذا حادثوهُ شعروا بما يحملهم على مثاله الى الطهر والقداسة

٢ تاج الامارة رمز احتقار لويس لمجد العالم

سبق انَّ تاج الامارة مرسوم عند اقدام لويس في صوره وما ذاك إلَّا رمزٌ محسوس لازدرائه بشرف العالم ومجده الباطل

﴿مقام لويس في العالم﴾ كان لويس من حيث حقوق بكوريَّته مرشَّحاً للامارة بعد والده لا يمكنهُ ان يتخلَّى عن حقوقه دون مراجعة ملك اسبانية الذي كانت امارة كاستيليونة من اقطاعاته. فكان اذن تاج الامارة معدًّا ليزين هامته. وكانت تلك

الامارة غنيَّةً بالاملاك واسعة الثروة. وكانت وراثة امامه هي ايضاً عائدة اليه. فما كان مع هذا ينقصهُ شيء من جاه العالم ومفاخره

لولا انَّ لويس نظر الى تلك العظمة والمقام الرفيع بعين العاقل الحكيم ووزنها بزنة الفهم البصير معارضاً لها بجزاء الآخرة ومجدها الابديّ فصرخ: «ما هذا بالنسبة الى الابديَّة» وجعل هذه الكلمة شعارهُ ومن ثمَّ قصد ان يتخلَّى عن حقوقهِ ويتفرَّغ لخدمة الله وحدهُ في الرهبانيَّة. واذ كشف عن غايتهِ لأُمِّهِ الفاضلة شكرت الله على ما ألهم ابنها القديس وتمنَّت ان يتمَّ لهُ ذلك كما يشاء.

﴿دفاع لويس عن دعوتهِ﴾ قال الربّ (متى ١١: ١٢): ان ملكوت الله يُغصب والغاصبون يختطفونهُ. فكان لويس احد اولئك الغاصبين. فانهُ لمَّا شعر بدعوة الله الى الترهُّب واعلن بنيَّتهِ للسيِّد فرديناندو والدهِ انتشبت بينهما حرب عوان دامت اربع سنوات. فانَّ والدهُ لمَّا سمع بما اخبرهُ ابنهُ عن دعوتهِ طردهُ من امامهِ واكَّد لهُ انهُ لن ينال مطلقاً الرخصة بهجران امارتهِ. كيف لا وهو قد عرف ما لابنهِ من الخصال الحميدة والسجايا الفريدة أفيرضى ان يتخلَّى عنهُ؟ ومن ثمَّ صمَّم العزم على مقاومتهِ بكل قواهُ

لكن لويس لم ييأس من الفوز برغوبهِ واخذ يلتجئ الى السماء. تُفكُّ اغلالهُ وضاعف صلواتهِ وضروب تقشُّفاتهِ وعاد غير مرَّة الى والدهِ يثبت له انَّ الله داعيهِ الى الترهُّب ولا بُدَّ لهُ ان يلبّي صوت ربّهِ. اما ابوهُ فلم يرعوِ فكان يستقبلهُ تارةً بالوعد وحيناً بالوعيد ثمَّ توسَّل بكل الوسائل ليصرف ابنهُ عن فكرهِ. فكان يُرسلهُ في مهمَّات ولايتهِ ويعهد اليهِ بالسكنى في قصور الملوك لعلَّهُ ينبهر بزخارفها الَّا انَّ لويس بعد قضاء المهمَّة كان يعود اليهِ ويذكّرهُ بمواعيده دون ان يحظى برضاهُ حتى انهُ في آخر مرَّة مثل بين يديهِ بتاتاً فقال لهُ لويس قبل وداعهِ: اعلم سيّدي بأنك بنكرانك عليَّ تقاوم ارادة الله الذي يدعوني الى الرهبانيَّة فانت مسؤول امامهِ بعنادك

قال هذا وخرج لويس من وجهِ والدهِ ودخل مخدعهُ وتجرَّد عن ثيابهِ الى وسطهِ واخذ سلسلة من حديد وصار يجلد نفسهُ طالباً من الله بذرف الدموع انْ يُلين قلب والدهِ. فوقف بعض الخدم على ما يفعلهُ لويس واخبر المركيزة امَّهُ فقامت ورأت من شقوق الباب ابنها مضرَّجاً بدمائهِ فاسرعت الى زوجها ودعتهُ الى نظر ابنهِ في تلك

الحالة قائلةً : ان لم تسمح لهُ بما يطلبهُ ستفقدهُ بذنبك . فتحنَّن قلب فرديناند وارسل فطلب ابنهُ . فلما رآهُ بآلت الدموع وجهه ولم يتمالك عن ان يضمَّهُ الى قلبهِ ويقول : «عليك يا ولدي كنتُ ابني آمال بيتي ولكن لا اريد ان اعارض مشيئتهُ تعالى فها انا ذا أُطلق سراحك وابارككَ فاذهب حيث يدعوك الله» فطار لويس فرحاً لهذا النبأ وقبَّل يد والده شاكراً واستعدَّ لمبارحة العالم باقرب وقت

وبعد ان بلغ الامر فيليبُّس الثاني سمح لهُ بالتنازل عن امرتهِ لاخيهِ رودلفوس . وتمَّ ذلك بحفلة شائقة حضرها الاعيان والاقارب بيزوهم الرسميَّة . وبينما كانوا مجتمعين في ديوان القصر واذا بلويس ظهر لهم بغتةً وهو لابسٌ ثوب الرهبانيَّة اليسوعيَّة التي كانت العذراء اوحت اليهِ بالدخول في حجرها . فما وقع نظر الحضور عليهِ حتى هطلت الدموع لاسيما والديهِ واخاهُ اما هو فكان يتبسَّم فرحاً كانهُ نجا من خطر عظيم وتهافت الى صكّ تنازلهِ عن الامارة فامضاهُ باسمهِ وسجَّلهُ . وبذلك انتصر على فخفخة العالم وشرفهِ الزائل وردَّد كلام المزمور (١٢٣ : ٧) : نجت نفوسنا مثل العصفور من فخّ الصيَّادين الفخّ انكسر ونحنُ نجونا

٣ الصليب يمزح مع لويس لربهِ وتضحية نفسهِ لهُ

﴿لويس في الرهبانيَّة اليسوعيَّة﴾ اسرع لويس وطلب البركة الوالديَّة واقرأ الوداع سائر اهلهِ ورحل الى رومية وذهب توًّا الى دير الآباء اليسوعيين حيث انطرح على قدمي رئيسهم العام الاب كلاوديوس اكوافيفا الذي كان سبقهُ في الجهاد عن دعوتهِ وهو مثلهُ من اسرة الامراء الرومانيين . فاوقفهُ وضمَّهُ الى صدره ثم قبلهُ في عداد رهبانهِ وكان ذلك في ٢٥ تشرين الثاني من السنة ١٥٨٥ وعمرُ لويس ١٧ سنة ونصف

﴿المبتدئ﴾ كان للمبتدئين اليسوعيين في رومية دير خاصّ يدعى دير القديس اندراوس ليس بعيداً عن قصر الكويرينال . ففيه انتظم لويس في سلك المبتدئين مهملاً نفسهُ في يد رؤسائهِ ليخرّجوهُ على كل آداب الرهبانيَّة . فوجد هناك ثمانين شاباً من بلاد مختلفة لكنهم كالمسيحيين الاوَّلين قلبٌ واحد ونفسٌ واحدة من جملتهم وطنيُّنا الماروني شهيد الحبشة الاخ ابراهيم جرجي وكلُّهم يتبارون في حلبة الصلاح والقداسة . فرأى لويس نفسهُ بينهم كما في جنَّة عدن وقصد ان يجاريهم طاقة جهده . وابتدأ بالتجرُّد من كل ما كان زوَّدهُ بهِ اهلهُ من ثياب ناعمة وكتب صلاة مذهَّبة وامتعة اخرى

جميلة. واختار اعتقَ ما وجدهُ في الدير من الثياب وادلّ ما فيهِ على الفقر الرهباني. وما مرَّ عليهِ بضعة ايام حتى سبق الجميع بممارسة اعمال التقى والتواضع فكان ينصب المائدة ويجلي الصحون ويكنس البيت ويعاون الطبّاخ ويعتبر نفسهُ خادماً لكل اخوتهِ

فكان وجوده في ذاك الدير المقدّس باعثاً جديداً لجميع اخوتهِ ليسموا مثلهُ في الكمال الرهباني لكنَّهم اقرّوا بانهُ سبقهم شوطاً كبيراً. واذ رآهُ الرؤساء يفرط في التقشفات والاماتات وضعوا حدًّا لنشاطهِ وغيرتهِ ففضَّل الطاعة لاوامرهم على الذبيحة الاختيارية وعوَّض عن ذلك بقمع كل اهواء قلبهِ وكسر ارادتهِ بحفظ كل القوانين حتى ادناها وبمضاعفة حبهِ لربهِ فكان لا يحوّل نظره عن الصليب ليصلب نفسهُ مع ربهِ في كل ساعات حياتهِ فيموت للحواس ليحيا بالربّ. وكان في بعض الايام يخرج ساحات البلد متسوّلاً كاحد الفقراء فيفرح مما ينالهُ لذلك من الاحتقار والاهانة

ومما انعم الله بهِ على لويس في زمن ابتدائهِ ميتة ابيهِ الصالحة توفي بعد شهرين ونصف لدخول ابنهِ في الرهبانية. وقد منحهُ الله في مرضهِ الاخير تربة نصوحاً واستعداداً تاماً للاقاة ربهِ ناسياً ذلك الى قداسة ابنهِ لويس فمات وهو يقبّل مراراً الصليب الذي كان في حجرة بكرهِ في القصر

﴿الدارس﴾ قضى لويس سنتين في محن الابتداء لم يحد ذرَّةً عن جادَّة القداسة والكمال الرهباني فابرز نذورهُ الاولى برهبانيَّة يسوع التي كان يحبُّها محبَّة ابرّ الابناء لأحنّ الأمهات. فدُعي الى دير رومية الكبير المعروف بالمدرسة الرومانيَّة الشهيرة من اكبر مدارس رومية وارقاها علوماً واوفرها عدداً. فامتاز هناك بالمدارس وباشر بالدروس الفلسفية واللاهوتية على اعظم المعلمين شهرةً. وكان منذ نشوئهِ قد صمَّم النيَّة على ألَّا يفوتهُ شيء من تلك العلوم ليخدم بها النفوس بعد كهنوتهِ. فبلغ منها مبلغاً بعيداً حتى انتدبهُ الرؤساء الى ان يلقي فحصاً عمومياً بازاء علماء رومية وارباب الكنيسة من كرادلة واساقفة وامام سائر الدارسين. ففكَّر القديس بان يتجاسر باجوبتهِ لينالهُ من ذلك احتقار وهوانٌ لولا مرشده الطوبوي بارمينوس الذي نهاهُ عن ذلك. فاطاعهُ وبهر الجميع بعلمهِ واحتشامهِ معاً. وانَّما ابدى في نظرهِ بعض النفور في وجه احد العلماء الفاحصين الذي قدَّم على اسئلتهِ مديحاً لاسرتهِ الشريفة ولشخصهِ

﴿القديس﴾ ولم تخمد الدروس شيئاً من نشاط لويس في الروحيَّات وممارسة

الفضائل . فكان اذا ختم دروسهُ يبادر الى الصلاة فيُرى امام القربان الاقدس جامدًا متخشعاً كانهُ غائب عن حواسهِ كبعض الارواح العلويَّة . وكان استحراره بالصلاة يؤدي بهِ الى شبه الانجذاب والتوتُّر حتى خاف الرؤساء على صحتهِ وامروهُ بان يصرف فكرهُ عن الله الى امور اخرى فكان كل ما يحاول طاعتهم يزداد ألَمُهُ حتى اطلقوا لهُ الحرية في ذلك . وكان في اوقات الفراغ والراحة لا يبتهج إلَّا بالحديث التقوي والاخبار الروحية . وكان في كل حركاتهِ وسكناتهِ يلوح للجميع كمثال حيّ لسيرة المسيح . فشاع خبرهُ بين شبَّان رومية فكانوا يقبلون الى المدرسة الرومانية حيث يمرُّ لويس ليشاهدوهُ فيشيرون اليهِ بالبنان . وقد سمح الله ان يعود لويس الى وطنهِ بامر الرؤساء ليصلح خلافاً وقع بين اخيهِ رودلفوس ودوقة مدينة منتوا بسبب مقاطعةٍ اورثها عنهُ للدوقة وكان الحقّ من جانب اخيهِ فحصلت بذلك مخاصمات وخرجت جيوش الفريقين للحرب فأُرسل لويس ليصلح ذات البين . فقامت البلاد وقعدت لاستقبال اميرهم القديس فخرجوا زرافات ووحداناً للاقائهِ واخذوا يطلبون بركتهُ ويتنافسون في اكرامهِ على الرغم من نفورهِ . ولما دخل قصر والدهِ استقبلتهُ امُّهُ جاثيةً وشاكرةً لله على نظر ابنها رحمًا اما المونثة التي لا يليها فان لويس بحكمتهِ وداعتهِ تمكَّن من اصلاحها وألَّف القلوب على احسن منوال ثم اسرع راجعاً الى رومية ليتجو من ازدحام الشعوب حولهُ

﴿الشهيد﴾ كان لويس يوم انضوائهِ الى رهبانيَّة القديس اغناطيوس طلب الى الله ان يمنحهُ نعمة الاستشهاد وهو يفكر في طلب الارسالية الى بلاد الوثنيين . فنال هذه النعمة على منوال آخر . فانهُ في السنة ١٥٩١ فشا في رومية وباء عضال ذهب بحياة كثيرين من اهل تلك المدينة لاسيما الفقراء والمحتاجين فكان الآباء اليسوعيون في مقدمة الذين حاولوا خدمة اولئك البائسين وعلاجهم وتوزيع الحسنات عليهم . وكانت اخصّ الذين اعتنوا لذلك الرهبان الكهنة . ثمَّ زاد المرضى فشوًّا وانتشاراً فتوسل الشمامسة اليسوعيون ايضاً ان يساعدوا الكهنة في عملهم الخيري . وكان لويس اوَّل من تفنى ذلك والحَّ على الرؤساء بالطلب حتى نال مرغوبهُ . فكان كل صباح يطوف المدينة ويتردَّد على معارفهِ الامراء ليجمع منهم الحسنات فيجمعها في كيس على كتفهِ ويوزّعها على المنكوبين . وكان يدخل اكواخهم ويرتّب فراشهم ويعزّيهم في بلاياهم ويُعنى بصغارهم فيلقّنهم الصلوات لا يبالي بما يصيبهُ في ذلك من العناء والمشقَّة بل

من الخطر المبين . فكان يرجع الماء الى المدرسة الرومانية منهوك القوى لايطلب راحة . على انَّ رؤساءهُ وجدوا انَّ تلك الخدمة اخذت تؤثر في صحتهِ واذ لم يمكنهم ان يصرفوه تماماً عن عملهِ المبرور لئلَّا يكدّروا خاطرهُ خفَّفوا عليهِ تلك المهنة وسمحوا لهُ بخدمة المرضى في المستشفيات إلَّا ان جرثومة المرض كانت نفذت في عروقهِ وتبيَّنت بعد زمن قليل اعراضها . فامرهُ رئيسهُ ان يلزم الفراش ثمَّ اخذت نوبات الداء تتوالى عليهِ فتتفاقم يوماً وتخفُّ يوماً فطالت مدَّتهُ الى ان قطع الاطباء الرجاء عن حياتهِ

فلمَّا عرف لويس انَّ اجلهُ قريب لاحت على محيَّاه امارات الفرح وكان يكرّر على الذين يعودونهُ كلمة الزبور (١٢١ : ١) : فرحتُ للقائلين لي الى بيت الربّ ننطلق . فيشكر الله على ما وهبهُ من نعمة الاستشهاد بخدمة القريب وبالموت في ربيع الشباب . وكتب الى والدتهِ يخبرها بالامر ويعزّيها ويطلب اليها ان تفرح بسعادتهِ القريبة

وكانت اواخر ايام حياتهِ كلّها نوافذ الى الله يتشوَّق الى رؤيتهِ تعالى ولا يتحدث على غير الامور الالهية ويكرّر قول الرسول (فل ١ : ٢٣) : اني اريد ان انحلّ من هذا الجسم واكون مع المسيح . وطلب ان يتناول القربان واكماً على الخضيض واخبر انَّ وفاتهُ ستكون ثامن يوم عيد جسد الربّ وهكذا تمَّ على خلاف ما كان الجميع يظنُّون كأنَّ الله اراد ان يجازيهُ عن عبادتهِ الفريدة للقربان الاقدس منذ نعومة اظفاره . وكان آخر ما فاه به الى رئيسهِ حيث سألهُ : كيف انت ؟ فقال : انا ذاهب . فاردف الرئيس : والى اين ؟ . فاجاب لويس : الى السماء برحمتهِ تعالى . قال هذا بكل طمأنينة كأنهُ ذاهب الى وليمة . وبعد حين انطفأ سراج حياتهِ وهو يتلفَّظ باسم يسوع وعلى صدرهِ الصليب كما يُرى في تمثيلهِ بين يديهِ . وكان ذلك في ٢١ حزيران سنة ١٥٩١

فاجمع كل الحضور انَّ تلك وفاة اعظم اولياء الله . وقد رأت القديسة مريم المجدلية دي باتزي نفس لويس في مصافّ القديسين فصرخت : «لله ما اعظم مجد لويس ابن اغناطيوس اني اودّ لو اطوف العالم كلّهُ واذيع في كل مكان انَّ لويس ابن اغناطيوس قديس عظيم . ما كنتُ لاظنّ انَّ في السماء مجداً كهذا» ودُفن جسدهُ الطاهر في محلّ خاصّ ريثما تقتضي الكنيسة بقداستهِ . اما غرفة موتهِ فتحوَّلت بعد قليل الى معبد اصبح مزاراً للجموع . وبقربها غرفتان اخريان مات في الواحدة القديس يوحنا برکمانس وسكن في الاخرى شهيدنا الوطني المكرَّم ابراهيم برجي اليسوعي

القديس استانسلاوس كوستكا

هذه الزهرة البشانية التي قطفها الله ونقلها الى جنان الخلود وهي شبيهة باختها نضارةً وعبيرًا لا بل سبقت ففاح أرجها بضع سنين قبل زمن لويس غونزاغا

١ مولد استانسلاوس

رأى استانسلاوس النور في پولونية في قصر اجداده روتسكوف وذلك في ٢٨ ت١ سنة ١٥٥٠ من اسرة بالغة في الشرف تعدّد فيها مشاهير الرجال وكان ابواهُ يوحنّا ومرغريتا عريقين في الفضل والدين. وكانت امُّهُ تفتخر بكونها من عشيرة ظهر فيها القديس إياشنتوس من الرهبانيّة الدومنيكيّة. وقد انعم الله عليها اذ كانت حبلى باستانسلاوس ان ظهر على صدرها اسم يسوع بحرف ذهبيّة مشعّة اشار الله بذلك الى دعوة ابنها الى الرهبانيّة اليسوعية. يوم عماده وضعهُ كفيله امام الذبح وقدّمهُ للقديد المسيح [illegible] الاسراف [illegible] فاثر وهلة في الحضور وتفاءلوا به خيرًا

وقد اجمع الشهود ان اول ما ابان الولد سنّ الرشد مال قلبهُ الى التقى والعبادة وحاد عن فعل ادنى الهفوات حتى أطلق عليه اسم الملاك وكانت الطهارة كانها غريزة في قلبه جُبل عليها منذ المهد فرضعها مع الحليب. وكان وهو فتى صغير دون الخامسة من عمره اذا سمع احدًا يفوهُ امامهُ بكلمة مذمومة من الآداب يتقع لونهُ ويُغمى عليه حتى حذّر ابوهُ القربا. ونهاهم عن كل كلمة مذمومة من الآداب امامهُ

٢ استانسلاوس في عصمة النعمة

لما ترعرع استانسلاوس سلّمهُ ابوهُ مع اخيه كبير يولس الى عناية احد المعلمين المدعو بلنسكي ليخرّجهما في العلوم اللاتينية والادبيّة شأن اشراف البلاد. فتلقّناها مدّةً الى ان بلغ اباهما انَّ اليسوعيين انشأوا حديثًا رهبانيّتهم فتحوا مدرسةً كبيرة في ڤيانة عاصمة النمسة تتاطر اليها الشبان من كل صوب فارسلها اليها وباتا في معاهدها تحت رعاية بلنسكي وكيلها

فكان استانسلاوس مثال الجدّ والتقى ناجحاً في دروسه ومواظباً على العبادة مبالغاً في اكرام البتول التي كان يدعوها امّهُ مثابراً على الصلاة وكل فرائض الدين. فيذيقهُ الله فيها سلوناً باطناً يزيد رغبتهُ فيها . على خلاف اخيهِ الذي كانت اشواقهُ الى العالم وميلهُ الى حطامه واباطيله

وظهرت فضيلة استانسلاوس في السنة الثانية لوجوده في ثيانة اذ مات الملك فرديننذ وقام خلفهُ مكسيميليان سنة ١٥٦٤ فانتزع من اليسوعيين باغراء اعدائهم البروتستانت مساكن الطلبة التي كان ابوه اكرم بها عليهم فلم يبق لهم سوى معاهد التدريس يحضرها التلامذة الخارجيون في المدينة. واضطرّ بولس واستانسلاوس ان يأجرا لهما محلًّا في احد البيوت فاختار بولس مع وكيلهِ حجرةً في بيت احد البروتستانت ليخلو لهما الجوّ في ملاهيها دون ان يرتيا خاطراً لاستانسلاوس

لكنّ الشابّ القديس عاهدَ استاذتهُ اليسوعيين على حفظ تقاهُ وسيرتهِ الصالحة مهما تكلفهُ في ذلك من المشاقّ . فكان اذا فرغ من دروسه يبادر الى الكنائس فيقضي فيها الساعات وهو يصلي . وقد لحظهُ البعض في صلاتهِ مرتفعاً عن الارض فيأخذهم العجب من امره. واما في ساعات الليل اذ كان اخوهُ ووصيهُ يتلهّيان باللعب وشرب المسكرات كان هو يحيي ليلهُ بالصلاة. فرأى اخوهُ ووصيُّهُ في فعلهِ توبيخاً وتقبيحاً لسيرتهما فاخذا يقرّعانهِ ويشتمانهِ . واذ لم يتزحزح استانسلاوس عن خطتهِ تلظّى بولس عليهِ غضباً واساءَ معاملتهُ بالضرب واللكم حتى بلغت بهِ قحتهُ ان وطئهُ بارجلهِ ولعلهُ كان قتلهُ لو لم يخرّ باستسكي من المنزلية امام والدهِ فخلّصه من يدي اخيهِ

٣ مرض استانسلاوس وشفاؤهُ العجيب

انّ سوء معاملة بولس لاخيهِ مع ما كان يفرضهُ استانسلاوس على نفسهِ من اعمال الورع والتقشف قد أدّت بهِ الى مرض عُضال اصابهُ فلزم الفراش وتحمّل بالصبر اوجاعهُ وهو لا ينيّ عن صلاتهِ ومناجاة ربّهِ . فهذا ما دفع ابليس الى ان يخيفهُ ويلقي في قلبهِ الجزع والقنوط فظهر لهُ على صورة كلب اسود هم بافتراسهِ وعيناه كجمرتي نار. لكنّ استانسلاوس عرف كيده وردّ عنهُ ثلاث هجماتهِ برسم اشارة الصليب ثلاثاً

على صدره فتوارى عنهُ ابليس بالخزي والفشل

ولما اشتدَّ الداء على الشاب الصالح وخاف ان يناجئهُ الموت دون ان يتسلَّح باسرار الكنيسة طلب الى وصيّهِ واخيه ان يأتيا لهُ بكاهن يزوّدهُ بقوت الملائكة . ولكنهما خافا ان يدري بذلك صاحب المنزل فيطردهما من بيتهِ فملأهُ بالمواعيد الكاذبة . اما استانسلاوس فالتجأ الى السماء اذ خاب املهُ من الارض وكان متعبدًا للقديسة الشهيدة بربارة وهي شفيعة المنازعين فتضرَّع اليها بكل حرارة ان تمدَّهُ بنعمة الاسرار . واذا بتلك البتول ظهرت لهُ مع ملاكين كان احدهما حاملًا القربان الاقدس فناولهُ اياهُ وتوارت الرؤيا عنهُ لكنَّ قلبهُ غاص في لجة الشكر واتَّقد بمحبة الله الذي لم يهمل عبدهُ في تلك الضيقة

وفي اثر هذه الرؤيا حظي بنعمة ثانية اعظم منها اذ تراءت لهُ العذراء مريم وعلى ذراعيها طفلها يسوع فجعلتهُ ساعة بين يدي استانسلاوس فذابت نفسهُ سرورًا وبهجة اذ رأى ما لا عين رأت ولا خطر على بال بشر . ولم تبارحهُ إلَّا بعد شفائهِ التامّ وايعازها لهُ بان يدخل في رهبانية ابنها يسوع . والغرفة الصغيرة التي وقعت فيها هذه العجائب لا تزال حتى اليوم موقَّرة يقصدها الوف من الزوَّار من النمسة وبولونية والمجر ليتباركوا منها وقد اسعدنا الحظ ان نقيم فيها الذبيحة المقدَّسة سنة ١٨٩٣ . وكان يزورها كل سنة الامبراطور فرنسوا جوزف

٤ دعوة استانسلاوس الى الرهبانيَّة وفراره من فيانَّة

تحقَّق استانسلاوس مشيئة الله الذي دعاهُ الى هجران العالم ولكن كيف يستطيع ان يلبّي دعوتهُ تعالى ؟ عرض الامر الى رئيس الآباء اليسوعيين في فيانَّة . فاجابهُ انَّ الامر مستحيل دون اذن والده الذي ما عرف بفكر ولده حتى تهدَّد بنفي اليسوعيين ان اجابوا الى ملتمس ابنهِ

فلم يرَ استانسلاوس بعد الصلاة واستشارة مرشد ضميره الَّا ان يفرّ هاربًا من فيانَّة ويذهب الى المانية فياتي بنفسهِ بين يدي رسول المانية الكبير القديس بطرس كانيزيوس في جامعة ديلنجن . فقام باكرًا في صباح احد الايام من مسكن اخيهِ واعطى الخادم إعلامًا بألَّا ينتظروهُ للغداء وخرج من المدينة قدعا فقيرًا هناك واعطاهُ ثوبهُ الفاخر

وتنكر بثوب حقير وسار ماشياً طول نهاره ورقد ليلته في كوخ على طريقه. فلم يرتب بولس ووصيها بلفكي بحيلة استانسلاوس حتى اذا كان الليل ولم يجداه واجماً لمبيته خامرهما الشك في نيته. وفي صباح اليوم التالي ركبا عجلة ليدركاه ويكرهاه على الرجوع الى المدينة. وما لبثا بعد ساعات ان رهقاه لكنهما لم يعرفاه في كسوته الفقرية متنكراً فسبقاه وتوغلا في السير دون ان يجدا احداً فعرفا ان ذاك الصعلوك هو هو استانسلاوس فرجعا القهقرى اليه. اما هذا فكان حاد عن الطريق لئلا يدركاه. فلما عادا اليه وارادا توجيه العجلة الى مبتغاه انتصبت الخيل ورجعت فأبت السير مطلقاً واضطرا الى الرجوع الى ثيابه فارغين

فواصل استانسلاوس سيره أياماً لا يكترث لتعب وعناء. وهو في طريقه لا يأخذه سأم ولا ملل عن الصلاة. وكان اذا وجد في طريقه كنيسة اسرع الى زيارتها وان امكنه بادر الى قبول الاسرار المقدسة فيها. واذ رأى يوماً كنيسة للبروتستانت فخدع بمنظرها ولجها للصلاة. لكنه بعد ساعة عرفها فخرج كئيباً اسيفاً وتمنى لو تخسف به الارض واذا بجوق من الملائكة تراءى له وبيديهم واحد في يده القربان فناوله وتواروا عنه جميعاً. فقام استانسلاوس كايداً الى ان بعد ان عذا الملاك بخبز عجيب وتابع طريقه بكل فرح ونشاط

دخل طالب الرهبانية الى كانيزيوس وتقابل القديس الشيخ والملاك وانطرح استانسلاوس على اقدامه طالباً منه بذرف الدموع ان لا يحرمه سعة الترهب في جمعية يسوع فعانقه كانيزيوس معانقة الاب لولده ووعده ان يرسله الى رومية حيث لا خطر على دعوته من قبل ابيه. لكنه اراد بكل فطنة ان يمتحن دعوته ويقدم اليه بان يخدم طلبة تلك المدرسة على المائدة. ففرح بذلك الامر وقام بخدمة التلامذة شهراً كاملاً وهم يقضون منه العجب لحشمته ونشاطه وعدم المبالاة بنفسه في أكل وشرب وراحة

ولما كان منتصف شهر ايلول من السنة ١٥٦٧ أرسل استانسلاوس مع رفيقين آخرين الى رومية. واعطاه القديس كانيزيوس رسالة الى رئيس الرهبانية العام في رومية يخبره بأمره وهو وقتئذٍ القديس فرنسيس بورجيا نائب ملك اسبانية سابقاً في كتالونية

٥ ترهّب استانسلاوس في رومية

ترحّب القديس بورجيا بذاك الطالب المُرسل اليه من قبل الله وباركهُ ثمَّ ضمّهُ الى امثالهِ من الطلبة في دير القديس اندراوس على جبل الكويرينال فكان ذلك في ٢٨ ت١ من السنة ١٥٦٧ وقد ادرك الثامنة عشرة من عمره. فلقي في دار المبتدئين عدّة من الشبان الذين اشتهروا سابقاً في العالم بتناصبهم الجليلة وشرّفوا بعد ذلك الرهبانية بفضائلهم وعلومهم وسفاراتهم واستشهادهم بين البرابرة. وكان من جملتهم سعيٌ لاستانسلاوس شابٌ پولوني دخل الابتداء بعده بأيام اسمهُ استانسلاوس وَرْسوسكي كان تقلّد السفارة لدى سلاطين آل عثمان وتعيّن رئيساً لمجلس شورى وطنهِ

لم يجد استانسلاوس كوستكا في امتحانات الابتداء ما يشقّ عليهِ فعلهُ من اوامر الطاعة والتذلّل وانكسار النفس بل كان يبادر اليها بكل شوق ورغبة ليعتق في قلبهِ اساس كل الفضائل الرهبانية

وانّما شقّ عليهِ ما علمهُ من غضب والده وعدم رضاهُ بدعوتهِ وكان وجّه اليهِ رسالةً يزجرهُ بها وينسبهُ الى تذليل شرف اجداده ويهدّدهُ بالقبض عليهِ واعادتهِ الى وطنهِ مكبّلاً بالاغلال. فكتب استانسلاوس لوالده هذه الرسالة التي يلي تعريبها :

سيدي الوالد

لو كان ما صدر مني موجباً انيظ عزّتكم وداعياً لتوبيخكم لاسفتُ على قلمي واتعبتُ منهُ للغاية. ولكني لم ارتكب في حقكم ذنباً ولا بخست من شرف بيتكم شيئاً. واما ما حسبتموهُ عليَّ جنايةً وذنباً فانهُ انيتهُ طبقاً لقول الانجيل الطاهر فلا اخجلُ منه ولا هو مما يسوءكم خطأً. وشهد الله يا سيدي اني منذ زمن مديد قد اخذت على نفسي الطاعة لهُ واعتناق صليب سيدنا يسوع المسيح. فوجدتُ نفسي مذنبة لا نظير لها على الارض ومن ثمَّ لا تأملوا سيدي قطعاً ان اعتل عن عزمي مهما كلفني ذلك من العذاب. فاسأ لكم ان تباركوا اماليَّ وتطلبوا لي نعمة الثبات في دعوتي فيكون لكم اجرٌ عظيم لدى الله واكون انا لعزّتكم من اخلص الشاكرين »

قضى استانسلاوس في دار الابتداء عشرة اشهر لاحت في كل اعمالهِ لوائح القداسة والكمال الرهباني. فكان في كل سيرتهِ مع رؤسائهِ ورفقتهِ لا يحيد ذرّةً عما

يوصي به آباء الهيئة التسكيّة الفضلى . ولم يكتفِ بهذا الكمال الخارجيّ بل كان ساعياً في تزيين نفسه بما يزيدها تقرُّباً الى الله فكان لشدّة حرارته في الصلاة وعظم حبه لله يستنير وجهه ويتّقد كأنه نارٌ مسعرة وكذلك صدرهُ يضطرم فلا يطيق حرارتهُ ويحتاج حتى في فصل الشتاء ان يبرّد لهيبهُ ويخمدهُ بالماء المثلوج . فيحيك نظرهُ في قلوب اخوته فيزدادون نشاطاً على مثاله

اما محبّتهُ للبتول فلا حاجة الى وصفها وقد رأينا ما اظهرت لهُ من اللطف والحنان . فكان يُسَرّ بالنظر الى صورها ويقتدي بفضائلها ولا ينام مساء قبل ان يحيّي كنيستها الكبرى بالسلام ويحني رأسهُ امام صورتها العجائبية المكرَّمة هناك طالباً بركتها . وكان اذا سألهُ احد هل يحبّ مريم يهبّ قائلاً : كيف لا احبُّها وهي أُمي

٦ وفاة القديس استانسلاوس

فهذه المحبة التي كان استانسلاوس مكنّها في قلبه هي التي دفعته عند اقتراب عيد انتقال العذراء ان يسأل منها ان تنقلهُ في ذلك النهار الى مقرّها في السماء ليحظى برؤيتها ويشارك القديسين في اكرامها . وكتب رسالةً صغيرة بهذا المعنى وجعلها على صدره يوم عيد القديس لورنسيوس شفيعه في شهر آب مستمدًّا تلك النعمة بواسطته . فأجابت ام الله ان تنيلهُ ما طلب وشعر بقبول طلبته

ومع انَّ استانسلاوس كان حاصلاً على عافية تامّة اشار الى بعض رفقته بقرب وفاته واخذ يستعدُّ لهذا السفر الاخير بما امكنهُ من الحرارة واعمال التقى . ففي مساء عيد القديس لورنسيوس في ١٠ آب احسّ بتوعّك في صحّته فارسلهُ الرئيس الى بيت المرضى حيث صرّح بقرب حلول اجله في يوم عيد انتقال العذراء . فلزمتهُ حُمّى لم يرَ الاطباء منها بأساً إلَّا انَّها اشتدَّت عليه بغتةً حتى تحقّق الجميع انَّ ما قالهُ عن وفاته في يوم عيد البتول انَّما اوحتهُ اليه مريم نفسها . ففي بيرامون العيد لاحت عليه اعراض الموت فاقتبل كل اسرار الكنيسة بفرح لا يوصف . فكان يظهر جبينهُ ساطعاً بالنور كأنهُ احد ملائكة الفردوس وكان في كلّ كلامه وكل حركاته يجد فيه الحضور مثالاً حيا لموت الابرار فتارةً يودّع رفقتهُ الرهبان ويعدهم بان سيذكرهم امام الله وتارةً

يستغفر عمَّا فرط منهُ من الزلّات وكانت اعظم تعزيته ان يقبّل جروحات صليب ابن الله ويقرنهُ العذراء ويلثم سبحة وردتيها بشوق يدعو الحضور الى البكاء لتأثيره بهم. وعند ساعة وفاته استضاء وجههُ وشخص بعينيه الى رؤيا جليلة فهمس الى احد الاباء بان والدة الله ظهرت لهُ بسبع جوق من العذارى وبعد هنيهة أسلم روحهُ في ١٥ آب ١٥٦٨ بكل هدوء دون ان يلوح على وجههِ شيء من امارات الموت وكان رأي العموم انَّ سبب موتهِ كان فرط محبتهِ لله ليس عاملاً طبيعياً

***

هذه نبذة وجيزة اختصرنا فيها سيرة ذينك الشابَّين الفاضلين بل البطلين الشهمين وفقاً لقول الشاعر :

ليس من يقطع طرقاً بطلاً انَّما من يتَّقي الله البطلْ

ولذلك قد شرَّفهما الله حتى على الارض وخوَّلهما مجداً ما كانا لينالاهُ لو عاشا في العالم بل بها تخلَّد ذكر اسرتيهما ولولاهما لبقي اسم غونزاغا وكوستكا في زوايا النسيان

وكان بودّنا ان نذكر الكرامات العديدة التي جرت في كل البلاد بشفاعتهما فانَّ كثيراً منها تقرَّر بشهادة اوثق الرجال واصدقهم قولاً وافضلهم سيرةً بازاء لجنة رسميَّة استنطقتهم فأدوا شهادتهم بعد القسم على الانجيل

واننا نُعدّ من اعظم تلك الكرامات تأثير أعمال هذين القديسين وقداسة حياتهما في ألوف من الشبان الذين تمثَّلوا آثارهما. فكم أنشئت جمعيَّات تقويَّة على اسمهما. وكم جمد العالم من الشبان اقتداء بهما. وكم عاد الى طريق الفضيلة من الضالين بعد الاطلاع على مآثرهما. وهذا ما دفع قداسة الحبر الاعظم الى نشر تلك الدراسة الجليلة التي أعلن فيها بيوبيل المئة الثانية لتثبيتهما قديسين ليستنهض هم الشبيبة فيسعوا الى التمثل بهما وينمو عدد اولئك الذين قال عنهم النبي في سفر الحكمة: «ما أبهى الجيل الطاهر النقيّ فانَّ ذكرهُ مخلَّد عند الله والناس»